القضايا النّقدية عند ابن سلام الجمحي

.The monetary issues of Ibn Salam al-Jumahi

هاجر بلخيري طالبة سنة الثّانية دكتوراه جامعة الجزائر كلية اللّغة العربيّة وآدابها واللّغات الشّرقية _ 2 _ أبو القاسم سعد الله (الجزائر)
belkhiri.hadjer@univ-alger2.dz

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2021-11-11	2023-05-20	2023-12-04

Summary

The introduction to the book "Tabaqat Stahl al-Shu'ara" is a rich introduction through which Ibn Salam was able to stand on heavy critical issues, especially the issue of plagiarism, which continues to have an impact to this day. It has taken on a wide dimension in the modern era with Taha Hussein in addition to other issues. In dealing with some issues with the arguments he relied on in his classification of poets, he laid the first foundations for ancient literary criticism.

Key Words: Critical issues, Ibn Salam, plagiarism, printing and workmanship, narration.

الملخص

إنّ مقدمة كتاب "طبقات فحول الشّعراء" مقدمة ثرية استطاع من خلالها **ابن سلام** الوقوف على قضايا نقدية ثقيلة خاصة قضية الانتحال الّتي لا يزال تأثيرها إلى يومنا هذا، فقد أخذت بعدا واسعا في العصر الحديث مع **طه حسين** إضافة إلى قضايا أخرى، وقد استعان **ابن سلام** في معالجته لبعض القضايا بالحجج الّتي اعتمد عليها في تصنيفه للشّعراء، فوضع لذلك الأسس الأولى للنّقد الأدبي القديم.

الكلمات المفتاحية: القضايا النّقدية، ابن سلام، الانتحال، الطّبع والصّنعة، الرّواية.

مقدمة:

إذا كان كتاب "طبقات فحول الشّعراء" وُضع لتصنيف فحول الشّعراء هذا لا يعني أنّ النّاقد لم يتعرض للشّعر وقضاياه، فقد حفلت مقدمة الكتاب بقضايا لها جذور متأصلة بالشّعر العربي القديم، ولا تزال هذه القضايا محل نقاش إلى يومنا هذا.

وقد أثارت مقدمة كتاب **ابن سلام** العديد من المسائل النّقدية والأدبيّة، فيمكن اعتبار هذه المقدمة بمثابة وثيقة نقدية فتح بها **ابن سلام** دراسته في تصنيف الشّعراء، فهي تحمل في طياتها أفكار النّاقد في بناء كتابه، فهي تُبرز لنا ثقافة النّاقد وقدرته في اختيار مواضيع أصبحت من صميم الدّراسات النّقدية بعده.

فيما تمثلت المسائل النّقدية الّتي عالجها ابن سلام؟ وهل لهذه القضايا النّقدية علاقة بالمعايير النّقدية الّتي اعتمدها ابن سلام في تصنيفه للشّعراء؟

تعرضّ **ابن سلام** في مقدمة كتابه إلى العديد من القضايا الّتي لها علاقة بالشّعر، وصرّح في مقدمة الكتاب أنّ أوّل عنصر يتطرّق إليه هو الشّعر يقول: « ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيّامها **(...)** فبدأنا بالشّعر »[1]، وبعد هذا الاعتراف يبدأ **ابن سلام** في عرض قضايا الشّعر وهي كالآتي:

1_ الانتحال:

تعدّ قضية الانتحال من أهم القضايا الّتي اعتنى بها النّقاد العرب قديما وحديثا، وأخذت حصة الأسد في مصنفاتهم، وكلّما أثيرت هذه القضية نشب الجدال والخلاف، في أيّ مكان وفي كلّ زمان، فلم يسلم منها أدب قط، وهي ظاهرة سلبية أوشكت على تدمير الأدب العربي القديم في حضوره وهيكله.

ويعتبر **ابن سلام الجمحي** أوّل من انتبه إلى مخاطر الانتحال في النّقد الأدبي القديم، فاعتنى بهذه القضية وقدّم فيها مناقشات وتحليلات من خلال كتابه "طبقات فحول الشّعراء"، ووقف عند الأسباب الّتي أدت إلى الانتحال، السّياسيّة منها والاجتماعيّة، **فابن سلام** لخص في مقدمة كتابه القضية وخطرها على الشّعر العربي القديم وما تؤديه من اندثار لهذا الأدب وضياعه.

وعليه الإشكال المطروح في هذه القضية هو:

كيف نشأت هذه الظّاهرة؟ وفيما تمثلت الأسباب الّتي أدت إلى الشّك في الشّعر العربي القديم عند ابن سلام؟

يبدأ **ابن سلام** كلامه عن الشّعر المصنوع والموضوع فيقول: « وفي الشّعر مصنوع مفتعل، موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربيّة، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يُستخرج، ولا مثلٌ يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر مُعْجِب، ولا نسيب مستطرف »[2]، فالشّعر في هذه الحالة ضعيف المستوى، ويكون **ابن سلام** أوّل من شك في صحة الشّعر الجاهلي، فيحاول من خلال هذا القول غربلة الشّعر والقيام بعملية تنقيب لإزالة الشّوائب الضّارة الّتي أدت إلى فساده حسب رأيه.

ويتعرّض **ابن سلام** في قوله السّابق إلى المعايير الّتي يصح بها أنْ نقول عن الشّعر شعرا صحيحا وقد حصرها في النّقاط التّالية:

_ أنْ يكون الشّعر الصّحيح حجة في العربيّة أي لابد أنْ يستشهد به العلماء في كلامهم، فالشّعر المنحول لا يستشهد به.

_ أنْ يستفاد منه الأدب.

_ أنْ يكون جيّدا في المديح، وغير فاحش في الهجاء، ومُعْجِبا في الفخر، ومستطرفا في النّسيب.

ورفض **ابن سلام** أنْ يحتج في دراسته للشّعر إلى الكتب أو الرّواة الّذين يعتمدون على الكتب في روايتهم للشّعر، ورأى أنّ الرّواية أهم من الكتب لأنّها تستند إلى رواة موثقين الّذين أخذوا الشّعر بالتّواتر عن أهل البادية، الّذين كانت لغتهم صافية، تأتي على السّليقة لا يشوبها اللّحن الّذي شاع عند الأعاجم، وعرضوه على العلماء المتخصصين الّذين يملكون القدرة على التّمييز بين الشّعر الصّحيح والشّعر الموضوع، لهذا يقول **ابن سلام:** « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد _ إذا أجمع أهل العلم والرّواية الصّحيحة على إبطال شيء

منه _ أنْ يقبل من صحيفة، ولا يُروى عن صُحُفى »[3]، فهناك رواة لا علاقة لهم بالشّعر دخلوا هذا المجال مثل: القصاص ورواة المغازي والسّير وغيرهم.

ومن الرّواة غير الموثوقين ذكر **ابن سلام محمد بن إسحاق بن يسار**صاحب السّيرة النّبوية، يقول: « وكان ممّن أفسد الشّعر وهجنه وحمل كلّ غثاء منه، **محمد بن إسحاق بن يسار** (...) وكان من علماء النّاس بالسّير (...) وكان أكثر علمه بالمغازي والسّير وغير ذلك _ فقبل النّاس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشّعر، أتينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السّير أشعار الرّجال الّذين لم يقولوا شعرا قطّ، وأشعار النّساء فضلا عن الرّجال، ثمّ جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنّما هو كلام مؤلف معقود بقواف »[4].

وقدّم **ابن سلام** حججا كثيرة تثبت انتحال **ابن إسحاق** للشّعر، منها الدّينيّة والتّاريخيّة والعقليّة، فمن الأولى يرى أنّ **ابن إسحاق** ذكر أشعارا لأقوام بادت كعاد وثمود وقد ذكر الله في كتابه العزيز نهايتهم قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ (50) وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ (51)** ﴾[5]، ويقول في قوم عاد: ﴿ **فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ** ﴾[6] وغيرها من الآيات، فبما أنّ الله **ـ سبحانه وتعالى ـ** ذكر هلاك هذه الأمم فمن أين جاء هذا الشّعر؟ ومن قاله؟ ومن الثّانية يرى ابن سلام أنّ اللّغة العربيّة لم تكن موجودة في عهد أقوام عاد وثمود، وأنّ تاريخ الشّعر الجاهلي لا يذهب إلى ذلك، ويؤكد في قول له أنّ أوّل من نطق بالعربيّة نبيّ الله **إسماعيل**[7] **ـ عليه السّلام ـ** الّذي بعث بعد هلاك عاد وثمود، وذكر **ابن سلام** في هذا الأمر اختلاف اللّغات فلغة عاد الّتي تعود إلى اليمن ليست هي لغة العرب، وبيّن ذلك بقول **لأبي عمر بن العلاء** قوله: « العرب كلّها ولد إسماعيل، إلّا حمير وبقايا جُرهُم »[8] ويقول: « ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عربيّتهم بعربيّتنا»[9]، ومن جهة أخرى ذكر في الحجج العقليّة أنّ تاريخ الشّعر الجاهلي لا يذهب إلى عصر عاد وثمود الموغل في القدم، وأنّ العرب في بداياتهم لا يمكن أنْ نجد لهم قصائد طويلة مكتملة البناء ومنظمة بتلك القوة والتّماسك الّتي جاءت عليها في عهد تلك الأقوام البائدة فازدهار الشّعر الجاهلي جاء متأخرا حوالي ١٥٠ سنة قبل الإسلام، يقول: « ولم يكن لأوائل العرب من الشّعر إلّا الأبيات يقولها الرّجل في حاجته، وإنّما قصدت القصائد وطوّل الشّعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف. وذلك يدّل على إسقاط شعر عاد وثمود وحِمْيَر وتُبع »[10].

فابن سلام من خلال تقديمه لهذه الحجج الّتي بينت انتحال الشّعر يُظهر لنا حسه النّقدي الّذي استطاع من خلاله التّمييز بين الشّعر المصنوع والشّعر الصّحيح، فقد تفطّن **ابن سلام** إلى هذه الظّاهرة لأنّه يتمتع بثقافة واسعة سمحت له أنْ يكون أوّل ناقد تطرّق لهذه القضية مثبتا إياها بحجج وأدلة قاطعة.

بعد هذا العرض النّقدي لقضية الشّعر المصنوع يبدأ **ابن سلام** في تناول أسباب الانتحال، والّتي تعود حسبه إلى عاملين: عامل تزايد الشّعر عند القبائل، وعامل الرّواة الوضاعين مثل: **داوود بن متمّم بن نويرة وحمادة الرّاوية** _ الّذي يعتبره **ابن سلام** أوّل من جمع أشعار العرب _ **وابن إسحاق** صاحب كتاب "السّيرة النّبويّة" الّذي سبق وتعرضنا له.

فالعامل الأوّل تسببت به القبائل حتّى يُعظم من شأنها أمام غيرها من القبائل، وقد قامت بعض القبائل بحمل شعر غيرها عندما وجدت العرب منشغلين بالدّين الجديد، فكان اهتمامهم منصب على حفظ القرآن والفتوحات الإسلامية، بدلا من الاهتمام بحفظ الشّعر الجاهلي الّذي كان دستورهم وديوانهم الخاص، يقول **ابن سلام**: « فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه

العربُ، وتشاغلوا بالجهاد وغَزْوِ فارسٍ والرّوم، ولَهَتْ عن الشّعر وروايته »[11]، والشّعر الّذي وصل إلينا لم يكن كاملا بل هو قليلا جدّا نظرا لموت الكثير من حفظته يقول: « فلمّا كثر الإسلامُ، وجاءتِ الفتوحُ، واطمأنّت العرب بالأمْصار، راجعوا رواية الشّعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مُدَوَّن ولا كتاب// مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، وذهب عليهم منه كثيرٌ »[12]، **وابن سلام** يذهب إلى أكثر من ذلك عندما ذكر أنّ الشّعر الّذي بين يدينا قلة قليلة من الشّعر الجاهلي ككلّ، الّذي ضاع بسبب وفاة الكثير من الرّواة، وأكدّ هذا الكلام قول **أبو عمر بن العلاء**: « ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلّا أقلّه، ولو جاءكم وافر لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثيرٌ »[13]. فهذه الأسباب في نظره جعلت بعض القبائل تتزايد في شعرها حتّى تصل إلى مصف القبائل الرّائدة ويعلو مقامهم عندهم يقول: « فلمّا راجعت العرب رواية الشّعر، وذِكر أيامها ومآثرها، استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم، فأرادوا أنْ يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم. ثمّ كانت الرّواة بعدُ، فزادوا في الأشعار الّتي قيلت »[14]، ويظهر هنا عنصر التّعصب القبلي حتّى تتفوق هذه القبائل على غيرها وتصنع لنفسها أمجادا كانت تحلم بها حتّى تفتخر بها على أقوام أخرى، وهنا يُبين لنا **ابن سلام** أهمية الرّواية الّتي عن طريقها يتحقق النّص قبل دراسته، وذلك للتّأكد من صحة قائله ونسبته له، وكان ذلك أهم معيار نقدي اعتمد عليه **ابن سلام** في دراسته وموازنته بين النّقاد.

وتمثل العامل الثّاني في الرّواة الوضاعين الّذين لم يكفيهم نحل الشّعر بل تجاوزوه إلى خلط الأشعار، إذْ يقول **ابن سلام** عن **حمادة الرّاوية**: أنّه « كان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرّجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار »[15] وضرب أمثلة كثيرة على ذلك تدلّ على تزيّد الرّواة في الشّعر منها قوله: « أخبرني **أبو عبيدة** أنّ **ابن داوود بن متمّم بن نويرة**، قدم البصرة (...) فأتيته أنا **وابن نوح العطارديّ [(تـ ؟)]**، فسألناه عن شعر أبيه متمّم، (...) فلمّا نفذ شعرُ أبيه، جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا »[16].

لكنْ الإشكال المطروح في هذه القضية هو: **كيف تمّ تدوين الشّعر العربي القديم؟**

2_ التّوثيق:

حديثنا عن القضية السّابقة وعن هذه القضية يحيلنا إلى الكلام عن مشكلة رواية الشّعر وكيفية تدوينه، فالشّعر الجاهلي وحتّى الإسلامي والأمويّ كان مرويا عن طريق السّماع، فكانت هناك أسواقا أدبية يُعرض فيها النّتاج الأدبي إضافة إلى القبائل، فكان النّاس يروُون الشّعر، وكان لكلّ شاعر راوٍ، وهذا كان سببا كافيا لشك النّقاد بالشّعر الجاهلي واعتقادهم بانتحال الروّاة للشّعر، ففي نظرهم هذه القصائد لم تكتب، وبالتّالي لم تبدأ عملية التّدوين إلّا في القرن الثّاني تقريبا أيْ في العصر العباسي، ويذهب **مصطفى علي عمر** إلى القول أنّ العرب لم تعرف الكتابة وحجته أنّ القرآن لم يُجمع إلّا بعد وفاة النّبي _ **صلّى الله عليه وسلم** _، حتّى الأحاديث النّبويّة دوّنت بعد مرور قرن من الهجرة، ونجد **مصطفى علي عمر** يرفض ما ذهب إليه **ابن عبد ربه** الّذي رأى أنّ المعلقات كتبت وعلّقت بالكعبة إذْ يقول: « لهذا فإنّنا نختلف مع **ابن عبد ربه** في العقد الفريد حيث يزعم أنّ معلقات شعراء الجاهليين كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة »[17]، لكنّنا نرى أنّ هذا الكلام فيه بعض المغالطة فبعض العرب عرفوا الكتابة والدّليل على ذلك أنّ النّبي _ **صلّى الله عليه وسلم** _ طلب من أسرى حرب بدر أنْ يعلّم كلّ أسير عشرة أطفال مقابل حريتهم، كما نجد المشركين والمسلمين وقعوا على رسالة للصّلح فيما بينهم.

هذا ما كان حول تدّوين الشّعر، لكنّ ما يهمُّ **ابن سلام** هو مشكلة التّوثيق، فهو لا يهمه الشّعر المبثوث في الكتب بقدر ما يهتم بالشّعر المروي، ويجب أنْ تكون الرّواية متواترة عن البدو ومعروضة على النّقاد المتخصصين، وأنْ يكون الرّاوي من الموثوق بهم، لهذا يقول: « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد _ إذا أجمع أهل العلم والرّواية الصّحيحة على إبطال شيء منه _ أنْ يقبل من صحيفة، ولا يُروى عن صُحُفي »[18]، فهو لا يعتمد على الرّأي الفردي وإنّما يستند إلى رأي الجماعة، « فهو يرى أنّه ليس من المقبول الخروج على هذه الآراء الّتي أجمع عليها رأي جماعة العلماء، وحين قدّم **امرأ القيس** على سبيل المثال، وبوأه هذه المنزلة الرّفيعة، استنار بآراء العلماء الّذين أجمع جُلّهم على أنّه سبق إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب، واتبعته فيها الشّعراء »[19]، الأساس عنده أنْ يقوم هذا الشّعر على السّليقة واللّغة السّليمة، والدّليل على ذلك أنّه لم يتعرّض إلى الشّعراء المحدثين لابتعاد شعرهم عن هذه الصّفات وعدم اعتماد اللّغويون والنّحويون عليهم.

3_ صناعة الشّعر:

يقرّ **ابن سلام الجمحي** في بداية مقدمته أنّ الشّعر صناعة كغيره من الصّناعات فيقول: « وللشّعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصّناعات: منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللّسان »[20]، فجعل **ابن سلام** أربع آليات من خلالها يتفحص النّاقد الشّعر وهي: العين، الأذن، اليد، اللّسان، فالعين يستعملها النّاقد ليس لغرض النّظر فقط وإنّما للبصيرة النّقدية الّتي يتمتع بها لمعرفة جيّد الشّعر من رديئه، فهي تنيره لمعرفة الشّعر الصّحيح من المنحول، وهذا بعد التّدقيق فيه، أمّا الأذن فمن خلالها يُحدّد النّاقد موسيقى الشّعر وقواعد اللّغة حتّى يميّز الشّعر الملحون عن الصّحيح، وقد وقف النّحاة على الأخطاء اللّغويّة والنّحوية وحتّى العروضيّة وذكر **ابن سلام** بعض الأمثلة كوقوع **النّابغة الذّبياني (تـ ٦٠٤م)** في خطأ نحوي في قوله[21]: [بحر الطّويل]

فَبِتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُ ناقعُ*

فبدلا من قوله ناقعٌ موضعها ناقعًا[22].

وعيب على **النّابغة** الإقواء في قوله[23]: [بحر الكامل]

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ، أو مُغْتَدِ عجلانَ، ذا زادٍ، وَغَيْرَ مُزَوَّدِ*

زَعَمَ البَوَارِحُ أنّ رِحلتَنَا، غدًا، وبذاكَ خَبَّرَنا الغُدافُ الأسْوَدُ*

الإقواء هو من عيوب القافية ويقصد بهم تغيّر حركة حرف الرّوي، وذكر **ابن سلام** ذلك في قوله: « ولم يُقوِ من هذه الطّبقة ولا من أشباههم إلّا **النّابغة** »[24].

أمّا اليد واللّسان فتساهمان في عملية التّحقّق والتّأكد من الشّعر وصاحبه، عن طريق البحث والتّنقيب.

4_ ثقافة النّاقد:

آثار **ابن سلام** في كتابه أهمية الثّقافة عند النّاقد، وتعرّض إلى ذلك في عدة مواضع، فأشار إلى أخطاء صدرت من أشخاص غير متخصصين بالشّعر إذْ يقول: « وجدنا رواة العِلم يغلطون في الشّعر، ولا يضبط الشّعر إلّا أهله »[25]، فهذا يدّل على معرفة العرب قديما للاختصاص في مجال معين، وللتّخصص في مجال معين لابد من توفر شروط في

المتخصص، فالنّاقد باعتباره متخصصا عند **ابن سلام** يتطلب أنْ تتوفر فيه شروط أو آليات الّتي سبق وذكرناها، وهي: العين، الأذن، اليد، اللّسان، وكلّ هذه الآليات تنطلق من ذوق النّاقد فهي أهم ميزة يتمتع بها النّاقد ولا تأتي هذه السّمة إلّا بكثرة الممارسة، ومن الأمثلة الّتي ذكرها **ابن سلام** قوله: « وكذلك بصر الرّقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللّون، جيّدة الشّطب*، نقية الثّغر، حسنة العين والألف، جيّدة النّهود، ظريفة اللّسان، واردة الشَّعَر*، فتكون في هذه الصّفة بمئة دينار وبمئتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر، ولا يجد واصفُها مزيدا على هذه الصّفة (...) ويقال للرّجل والمرأة في القراءة والغناء: إنّه لندِي الحلق، طلّ الصّوت*، طويل النّفس، مصيب للّحن، ويوصف الآخر بهذه الصّفة، وبينهما بون بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له، بلا صفة يُنتهى إليها، ولا علم يوقَف عليه وإنّ كثرة المدارسة لتُعْدِي على العلم به. فكذلك الشّعر يعلمه أهل العلم به »[26]، فهذا المثال يُوضح لنا مدى أهمية الاختصاص فلكلّ علم نقاده المتخصصين، ونفس الشّيء في الشّعر له نقاد متخصصين متسلحين بذوقهم الخاص إضافة إلى ثقافتهم في الشّعر ومعرفتهم بدقيقه، فهذه الثّقافة تساعدهم في التّمييز بين الشّعر الصّحيح والشّعر الزّائف، وتنمي مهارة النّاقد.

5_ بداية الشّعر العربي:

تطرّق **ابن سلام** في مقدمة كتابه إلى نشأة الشّعر العربي، الّذي كانت نشأته الأولى عبارة عن أبيات يقولها الشّاعر عند حاجته إذْ يقول: « ولم يكن لأوائل العرب من الشّعر إلّا الأبيات يقولها الرّجل في حاجته، وإنّما قُصّدت القصائد وطوّل الشّعر على عهد **عبد المطلب، وهاشم بن عبد المناف** »[27].

لكنّ يعود **ابن سلام** ويعطينا « أوّل من قصّد القصائد وذكر الوقائع، **المهلهل بن ربيعة التّغلبي** في قتل أخيه كليب، قتله بنو شيبان »[28]، وهذا رأي **ابن سلام** حول أوّل من قصّد القصّائد وهناك آراء أخرى تذهب إلى أبعد من ذلك*.

ولم يكتف **ابن سلام** بذكر نشأة الشّعر وإنّما يتطرّق إلى التّطور الّذي لحق بالشّعر، فتتحدث عن البيئة الّتي نما فيها الشّعر وازدهر فذكر أنّ الشّعر كان في ربيعة ثمّ قيس ثمّ تميم[29]، وهذه الأخيرة حسب النّاقد بقي الشّعر مزدهرا عندهم حتّى عصره.

6_ الصّدق والكذب:

تعرض **ابن سلام** إلى قضية الصّدق والكذب في ثنايا حديثه عن عاطفة الشّعراء عند قولهم الشّعر، وذكر أنّ العرب عدّت **المهلهل بن ربيعة التّغلبي** أوّل من كذب في الشّعر إذْ يقول: « وزعمت العربُ أنّه كان يدّعي في شعره، ويتكثّر في قوله بأكثر من فعله »[30].

ونجده في حديثه عن **زهير بن أبي سلمى** يذهب إلى هذه القضية فيصفه بالصّدق، فيقول: « كان لا يعاظل // بين الكلام، ولا يتبع وحشيّه، ولا يمدح الرّجل إلّا بما فيه »[31]، وتمثل صدقه في مدحه للإنسان بالحقائق الّتي يتمتع بها.

وإذا توغلنا في طبقات **ابن سلام** نجده يعود مرة أخرى للحديث عن هذه القضية في طبقات فحول الإسلام عندما يتناول شعر **جميل بثينة وكثير عزّة**، فيقول: « وكان **جميل** صادق الصّبابة، وكان **كثير** يتقوّل »[32]، فكيف علم **ابن سلام** أنّ **جميل** صادق في شعره **وكثير** كاذب؟ ومدار ذلك يتمثل في حياة الشّاعرين فجميل عشق **بثينة** وشعره هو تُرجمان لأحاسيسه اتّجاهها، في حين يذكر **ابن سلام** أنّ **كثير** « لم يكن عاشقا »[33]، وهنا قدم **ابن سلام** حجته في كذب **كثير**.

7_ الطّبع والصّنعة:

لا زال **ابن سلام** يقدم لنا من خلال مقدمة كتابه "طبقات فحول الشّعراء" قضايا نقدية هامة ذات تأثير على الشّعر والشّاعر، وتعدّ قضية الطّبع والصّنعة أهم تلك القضايا، الّتي وضعت حدّا فاصلا بين الشّعراء المطبوعين بالفطرة والشّعراء المتصنعين المهذبين لشعرهم أو المتكلفين، ولم يستعمل **ابن سلام** لفظة طبع بل نجده يستخدم لفظة قريحة وذلك في قوله: « ولم يكن **أوس بن مغراء** إلى **النّابغة** في قريحة الشّعر »[34]، ويقول عن **خداش بن زهير**: « هو أشعر في قريحة الشّعر من لبيد »[35]، وقوله أيضا: « **والكميت بن معروف** الأوسط أشعرهم قريحة »[36]، ونعني بالقريحة طبيعة الإنسان[37]، والطّبيعة هي الفطرة الّتي جُبِل عليها الإنسان، وبالتّالي هي الطّبع الفطري الّذي يكون عليه الإنسان، وأشار إلى الطّبع عندما ذكر إعجاب **الأصمعي** بشعر **النّابغة الجعدي** إذْ يقول: « كان **الأصمعي** يمدحه بهذا وينسبه إل قلة التّكلف »[38]، ومن الحجج الّتي ذكرها **ابن سلام** في تقديمه **للنّابغة الذّبياني** قوله: « كأنّ شعره كلام ليس فيه تكلف »[39]، فالنّاقد من خلال هذه الآراء استطاع التّفريق بين الشّعر المطبوع الّذي يأتي على السّليقة والاسترسال فهو يأتي دون تعب وبذل جهد والشّعر المصنوع الّذي يعاد النّظر فيه، إمّا بغرض تهذيبه وتنقيحه لإزالة الشّوائب منه مثلما فعل **زهير بن أبي سلمى**، أو لإغراقه في الصّنعة الّتي شاعت في العصر العباسي مثلما حدث مع الشّعراء المولدين فيخرج بذلك الشّاعر عن عمود الشّعر المتعارف عليهم.

8_ بناء القصيدة:

عالج **ابن سلام** هذه القضية عند تعرّضه للطّبقة الأولى من شعراء الجاهلية، فبنى من خلال الحجج الّتي قدّمها حول شعراء هذه الطّبقة بنية القصيدة العربيّة القديمة ووضع هيكلا خاصا بها، فهي نموذج الشّعر العربي الأصيل، فهو أوّل من نبّه إلى هذا البناء وذلك عند احتجاجه **لامرئ القيس** بأنّه « قال: ما قال ما لم يقولوا، ولكنّه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشّعراء، استيقاف صحبه، والتّبكاء في الدّيار، ورقة النّسيب، وقرب المأخذ، وشبه النّساء بالظّباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وقيد الأوابد. وأجاد في التّشبيه. وفصل بين النّسيب وبين المعنى »[40]، فالنّاقد من خلال هذا القول يُبرز الهيكل العام للقصيدة العربيّة القديمة أو لعمود الشّعر العربي الّذي يعتمد على التّشبيهات القريبة الواضحة غير الغامضة، فتشبيهات **امرئ القيس** قريبة من بيئته لهذا أُعجب بها العرب واتبعوه في ذلك، كما نلاحظ من خلال هذا القول وضع منهج للقصيدة العربيّة القديمة من بدايتها إلى نهايتها فتبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال والبكاء على الدّيار وهي ما تعرف بالمقدمة الطّللية، لينتقل إلى النّسيب وتشبيه النّساء بالظّباء والبيض وغيرها من التّشبيهات، ويخرج بعدها إلى غرض آخر بحسب رغبة الشّاعر، فالقصيدة العربيّة القديمة متنوعة الأغراض وهي خاصية أساسية في بنيتها.

9_ لغة الشّعر:

ذكر **ابن سلام** في حججه الّتي قدمها أثناء عرضه للشّعراء في طبقات عناصر خاصة بلغة الشّعر، فتحدث عن حسن الدّيباجة وكثرة الرّونق والجزالة فقال عن **النّابغة الذّبياني** « كان أحسنهم ديباجة شِعر، وأكثرهم رونق كلامٍ، وأجزلهم بيتا، كأنّ شعرهم كلام ليس فيه تكلف، والمنطق المتكلم أوسع منه على الشّاعر، والشّعر يحتاج إلى البناء والعروض والقوافي، والمتكلم مطلق يتخيّر الكلام »[41]، هذا القول يعطينا مميزات الشّعر، والفرق بين الشّعر والنّثر، فحسن الدّيباجة وكثرة الرّونق والجزالة هي في نظر **ابن سلام** صفات خاصة بلغة الشّعر ويعني بها السّبك والتحام أجزاء الكلام، وذكرها **الجاحظ** في

حديثه عن مميّزات الشّعر من التحام الأجزاء والفهم القريب، وسهولة المخارج، وعذوبة النّطق إذْ يقول **ابن رشيق القيرواني**: « قال **أبو عثمان الجاحظ**: أجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه أفرغ إفراغا واحدًا، وسبك سبكًا واحدًا؛ فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان »[42]، لكنْ من جاء بعده من البلاغيين على غرار **أبي هلال العسكري** جعل هذه الصّفات في كتابه "الصّناعتين" خاصة بلغة القرآن إذْ يقول: « وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله بِهِ من حسن التّأليف، وبراعة التّركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللّطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجَلَّله من رونق الطّلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها »[43].

وقد قدّم **ابن سلام** نماذج عديدة حول عناصر لغة الشّعر منها حديثه عن **البعيث المجاشعي** قوله: « وكان **البعيث** شاعرًا فاخر الكلام حُرَّ اللّفظ »[44]، ويقول عن **القطامي** « وكان **القطامي** شاعرًا فحلًا، رقيق الحواشي، حُلْو الشّعر »[45].

ومن عناصر لغة الشّعر الّتي أشار إليها **ابن سلام** الفصاحة ويقصد لها جزالة اللّفظ وحسن المعنى، وقدّم أمثلة على ذلك منها حديثه عن **ذي الرّمة**[46] **وعمرو بن أحمر**[47].

ونستخرج من النّص السّابق حول الحجج الّتي ذكرها **ابن سلام** عن **النّابغة الذّبياني** الفرق بين الشّعر والكلام الّذي حدّده في ثلاثة عناصر: البناء والعروض والقوافي، فبناء القصيدة سبق وذكرناها في الحجج الّتي قدّمها عن **امرئ القيس**، أمّا العروض والقوافي فهي تحدّد موسيقى الشّعر لكنّها ليست مقياسا أساسيا فقد يتحقّق وجودها في النّص ولا يكون شعرا، وقدّم **ابن سلام** مثالًا عن ذلك الشّعر الّذي وضعه **ابن إسحاق** ونسبه لقوم عاد وثمود[48]، والكلام عند الشّاعر ضيّق لكنّ الشّاعر يملك رخصة لتجاوز هذا الضّيّق، فالضّرورات تبيح المحظورات كما يقال، وغياب الضّرورات يعني أنّ الشّعر جاء مطبوع على السّليقة، أمّا حضورها يؤدي إلى التّكلف سواءً كان هذا التّكلف محمودًا أو مذمومًا، ومن التّكلف المحمود ما نجده عند **زهير بن أبي سلمى** تجنب المعاظلة[49]، أمّا المذموم نجد عند الشّعراء المولدين.

خاتمة:

وقف هذا البحث على القضايا النّقدية الّتي تطرّق إليها **ابن سلام الجمحي** في كتابه "طبقات فحول الشّعراء"، واتضح لنا أنّ **ابن سلام** لم يقف عند قضية الانتحال فقط والّتي كان السّباق إلى طرحها، وإنّما نجده يعالج قضايا أخرى أصبحت من صميم الدّراسات النّقدية كحديثه عن قضية الطّبع والصّنعة، الصّدق والكذب، بناء القصيدة، ثقافة النّاقد إلى غيرها من القضايا، فكتابه وإنّ صنفه لفحول الشّعراء إلّا أنّه تطرّق فيه لقضايا نقدية قيّمة فاتحا بذلك المجال لمن جاء بعده للتّوسع فيها.

ولهذه القضايا علاقة بالمعايير النّقدية كونها ولدت من رحمها، فالحجج الّتي اعتمد عليها **ابن سلام** في تصنيف الشّعراء كانت المركز الأساسي للقضايا النّقدية المعروضة.

---

[1]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، دط، دت، ج1، ص03.

[2]. المصدر نفسه، ج1، ص04.

[3]. المصدر نفسه، ج1، ص04.

[4]. المصدر نفسه، ج1، ص07 و08.

[5]. النّجم، آ50 و51.

[6]. الحاقة، آ8.

[7]. ينظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، ص09.

[8]. المصدر نفسه، ج1، ص09.

[9]. المصدر نفسه، ج1، ص11.

[10]. المصدر نفسه، ج1، ص26.

[11]. المصدر نفسه، ج1، ص25.

[12]. المصدر نفسه، ج1، الصّفحة نفسها.

[13]. المصدر نفسه، ج1، الصّفحة نفسها.

[14]. المصدر نفسه، ج1، ص46.

[15]. المصدر نفسه، ج1، ص48.

[16]. المصدر نفسه، ج1، ص47 و48.

[17]. مصطفى علي عمر، في النّقد الأدبي القديم، دار المعارف، مصر، ط2، 1989، ص203.

[18]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص04.

[19]. جهاد المجالي، طبقات الشّعراء في النّقد الأدبي عند العرب _ حتّى نهاية القرن الثّالث الهجري_، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص108.

[20]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص05.

[21]. النّابغة الذّبياني، الدّيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1996، ص54.

[*] فبت: أدركت، ساورتني: انقض عليه، ضئيلة: أفعى دقيقة اللّحم، الرُّقشِ: الحية الممزوجة بالبياض والسّوداء، ناقع: قاتل، الشّاعر يتحدث. عن المخاوف المحيطة به بسبب النّعمان.

[22]. ينظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص16.

[23]. النّابغة الذّبياني، الدّيوان، مصدر سابق، ص105.

[*] رائح أو مغتد: يخاطب الشّاعر نفسه هل يبقى في حالة ذهاب وإياب من وإلى آل ميّة، غير مزوّد: يقصد أنّه لم يحسن رؤية من يحب.

[*] البوارح: طيور كان العرب يتفاءلون بها، الغُدافُ: الغراب.

[24]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص67.

[25]. المصدر نفسه، ج1، ص60.

[*] جيدة الشّطب: طويلة حسنة الخلق.

[*] واردة الشَّعر: مسترسل طويل جيد.

* ندي الحلق: رطب غير جاف بها، طلّ الصّوت: بهيج الصّوت.

[26]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص6 و7.

[27]. المصدر نفسه، ج1، ص26.

[28]. المصدر نفسه، ج1، ص39.

* ذكر **جلال الدّين السّيوطي** في كتابه "المزهر في علوم اللّغة وأنواعها" أنّ بعض القدماء زعموا أنّ أوّل من قصّد القصائد هو **الأفوه الأودي** أو ابن حَذَام، والواضح أنّ هناك اختلاف حول ذلك خاصة وأنّ الشّعراء كانوا في نفس الفترة، ينظر: جلال الدّين السّيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1986، ج2، ص477.

[29]. ينظر: ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص40.

[30]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، الصّفحة نفسها.

[31]. المصدر نفسه، ج1، ص63.

[32]. المصدر نفسه، ج2، ص545.

[33]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، الصّفحة نفسها.

[34]. المصدر نفسه، ج1، ص126.

[35]. المصدر نفسه، ج1، ص144.

[36]. المصدر نفسه، ج1، ص195.

[37]. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار النّوادر، الكويت، دط، 2010م، مادة (ق.ر.ح)، ج3، ص392.

[38]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج1، مصدر سابق، ص125.

[39]. المصدر نفسه، ج1، ص56.

[40]. المصدر نفسه، ج1، ص55.

[41]. المصدر نفسه، ج1، ص56.

[42]. العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، ج1، ص257.

[43]. أبو هلال العسكري، الصّناعتين، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 1989م، ص09.

[44]. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشّعراء، ج2، مصدر سابق، ص535.

[45]. المصدر نفسه، ج2، الصّفحة نفسها.

[46]. ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص569.

[47]. ينظر: المصدر نفسه، ج2، ص580.

[48]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص08.

[49]. ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص63.